شعر الأَسْر

بين أبي فراس الحمداني
والمعتمد بن عباد

دكتور

محمد مختار جمعة مبروك

الأستاذ المساعد بكلية الدراسات الإسلامية

والعربية للبنين بالقاهرة

مقدمة

الحمد لله الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم ، والصلاة والسلام على خاتم أنبيائه ورسله سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه ومن تبع طريقه بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد:

فالأسر محنة تنصهر فيها النفس الإنسانية ، وغالبا ما تظهر على حقيقتها بعيداً عن الزيف والادعاء ، وتتميز في هذه المحنة معادن الرجال ، فمنهم من تنهار قواه ، فيندب حاله ، ويبكي نفسه ، ويعلن عن حسرته وأساه ، وقد يضعف فسيتعطف ويستجدي الحرية والعفو ، ومنهم من يظل أبيّا شامخا قويا ، لا تلين له قناة ، ولا تنحني له هامة.

فشعر الأسر يكشف عن أغوار النفس الإنسانية ، ولاسيما النفوس الكبار كنفس أبي فراس الحمداني والمعتمد بن عباد ، وغالبا ما يعبر هذا الشعر عن تجربة صادقة ، بل تجربة عميقة متفردة تنبثق من عمق المعاناة التي يعيشها الشاعر في أسره.

وقد اخترت في تناولي لهذه التجربة الشعرية اثنين من أعلام الشعر العربي، هما: أبو فراس الحمداني ، والمعتمد بن عباد.

أما أبو فراس فارس بني حمدان فقد جاءت روملياته صورة لمأساته ، أطلعنا فيها على عمق معاناته ، وجعلنا نعيش معه هذه التجربة التي انعكست بوضوح على شعره ، ولاسيما أنه قد نفحها نفحة عاطفية قوية وعميقة وصادقة ، بل متفردة في

توهجها وعنفوانها ، ولا نبالغ إذا قلنا : إن أبا فراس استمد مكانته الشعرية وسجل اسمه بارزاً في تاريخ الشعر العربي من خلال شعره في الأسر.

وأما المعتمد بن عباد خاتمة ملوك الطوائف فهو واحد من أعلام الشعر الأندلسي، ومن أبرز ملوك الطوائف ، إن لم يكن أبرزهم جميعا ، وقد شكل سقوط دولته مرحلة فاصلة في تاريخ الأندلس بصفة عامة ، وفي حياته هو بصفة خاصة ، فقد دارت عليه دائرة الزمن ، فحولت عزه ذلا ، وغناه فقرا ، وحريته أسراً ، مع ما كبلته به من القيود والأغلال ، واليأس وفقدان الأمل.

وقد اعتمل ذلك كله فى نفسه الشاعرة ، فجاءت تجربته الشعرية في الأسر محملة بكل هذه التقلبات، معبرة عن معاناته وما آل إليه حاله، وتنكر الأيام له، وقسوتها عليه، في عاطفة مستكينة هادئة، وفكرة واضحة تغمرها روح الحكمة والعقل.

وقد حاولت أن أكشف عن بعض أغوار النفس الإنسانية ، وانعكاس الحالة النفسية على التجربة الشعرية من خلال تناولي لشعر الأسر عند هذين الشاعرين الكبيرين.

ويأتي البحث في مقدمة ، وتمهيد ، وثلاثة مباحث ، وخاتمة.

أما التمهيد فيتناول مفهوم الأسر في اللغة والاصطلاح ، والفرق بينه وبين الحبس والسجن.

وأما المبحث الأول فمهاد تاريخي حول ترجمة الشاعرين.

وأما المبحث الثاني فيتنـاول تجربـة الشـاعرين في مواجهـة الأسـر ومعاناتـه النفسية.

وأما المبحث الثالث فيتناول أثر الأسر في تشكيل أغراضهما الشعرية.

ثم تأتي الخاتمة لتلخص أهم نتائج البحث ، ويعقبها فهرس لأهم مصادره.

وإني لأرجو أن أكون قد وفقت فيما قصدت ،والله من وراء القصد ، وهو مولانا فنعم المولى ونعم النصير.

د / محمد مختار جمعة مبروك

الأستاذ المساعد بكلية الدراسات الإسلامية

والعربية للبنين بالقاهرة

تمهيد

مفهوم الأسر

أولاً : في اللغة :

الأسر لغة : الشَّدُّ ، والعَصْبُ ، وشدة الخَلْق والخُلُق[١].

وأسره يأسره أسراً و إساراً : قيده ، وأخذه أسيراً[٢].

والإسار : القيد ، والحبل يشد به الأسير ، ومنه سمي الأسير أسيراً ، لأنهم كانوا يشدونه به لئلا يفلت ،وسمي كل أخيذ أسير وإن لم يشد به[٣].

وقد يطلق الأسر ويراد به الحبس أو السجن ، ومنه قول عمر بن الخطاب (رضي الله عنه): "والله لا يؤسر في الإسلام أحد بشهادة الزور ، إنا لا نقبل إلا العدول"[٤] ، وقول أبي الشغب العبسي[٥] – في خالد بن عبد الله القسري . وقد سجنه يوسف بن عمر الثقفي[٦]:

ألا إن خير الناس قد تعلمونـــــــــه

أسير ثقيف موثقا في السلاســـــــل

---

(١) القاموس المحيط : أسر.

(٢) المعجم الوسيط : أسر.

(٣) لسان العرب : أسر.

(٤) لسان العرب: أسر ، وهذا الأثر أخرجه الإمام مالك في الموطأ : كتاب الأقضية ، باب ما جاء في الشهادات ، عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن ، جـ١ ص٤٤٨ ، ٤٤٩ بتصحيح محمد فؤاد عبد الباقي ط دار الشعب بدون تاريخ، ولفظه : "والله لا يؤسر رجل في الإسلام بغير العدول".

(٥) أبو الشغب : شاعر من شعراء الدولة الأموية اسمه عكرشة. انظر : البيان والتبيين للجاحظ جـ ٣ ص ٢٣٥ تحيقيق عبد السلام هارون ط دار الجيل ، ودار الفكر بيروت ، والأمالي لأبي علي القالي جـ٢ ص٩٩ط الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧٥م.

(٦) البيان والتبيين للجاحظ جـ ٣ ص ٢٣٦ ، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي جـ٢ ص ٩٢٧ ، ٩٢٨ تحقيق أحمد أمين وعبد السلام هارون ط لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٨٢م ، وانظر : تاريخ الطبري جـ٧ ص ٢٥٧ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ط دار المعارف سنة ١٩٧٧م.

فإن تسجنوا القسرى لا تسجنوا اسمه

ولا تسجنوا معروفه في القبائـــــل

وفي اللسان : كل محبوس في قِدّ أو سجن أسير[١].

وقال مجاهد وعطاء وسعيد بن جبير في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾[٢] الأسير : المسجون ، وقال أبو سعيد الخدري : الأسير : الملوك والمسجون[٣].

وظل هذا الترادف اللغوي بين الأسر والحبس والسجن ملحوظا من العصر الجاهلي إلى العصر الأموي ، فلما جاء العصر العباسي أخذت لفظة أسير تختص بالذين يؤخذون حربا ، والسجين أو الحبيس بمن تعتقله السلطة[٤].

ثانيا : في الاصطلاح:

يمكن من خلال الإشارات التي وردت في بعض المعاجم وفي كتب التفسير والحديث والفقه أن نعرف الأسر بأنه : أخذ بعض الناس على سبيل الغلبة والقهر في حرب أو نحوها.

والأسير : هو المأخوذ قهراً في حرب أو نحوها ، وجمعه أسرى وأساري ، وعليه قوله تعالى:﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الْأَسْرَى إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي

---

(١) لسان العرب : مادة " أسر".

(٢) الإنسان : آية (٨).

(٣) انظر : روح المعاني للألوسي جـ ٢٩ ص ١٥٦ ط المركز الإسلامي للطباعة والنشر ، نشر دار التراث بالقاهرة – بدون تاريخ.

(٤) انظر : الأسر والسجن في شعر العرب : تاريخ ودراسة د/ أحمد مختار البزرة ص ٢٤ ، ٢٥ ط مؤسسة علوم القرآن دمشق ، بيروت سنة ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م الطبعة الأولى ، ويدعم ذلك استقراء التطور الدلالي للكلمة.

قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ﴾[2] ، وقوله تعالى: ﴿ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾[3].

وعليه حديث السيدة عائشة (رضي الله عنها): "لما بعث أهل مكة في فداء أسراهم بعثت زينب بنت رسول الله ﷺ في فداء زوجها أبي العاص بمال ، وبعثت فيه بقلادة لها كانت عند خديجة (رضي الله عنها) أدخلتها بها على أبي العاص ، فلما رآها رسول الله ﷺ رَقّ لها رقة شديدة ، وقال : إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها الذي لها ، قالوا : نعم"[4].

---

(١) الأنفال : آية (٧٠).

(٢) البقرة : جزء من الآية (٨٥).

(٣) الأحزاب : جزء من الآية (٢٦).

(٤) أخرجه أبو داود في سننه : كتاب الجهاد ، باب في فداء الأسرى بالمال عن السيدة عائشة (رضي الله عنها).

المبحث الأول

التعريف بالشاعرين

أ – أبو فراس الحمداني :

هو أبو فراس الحارث بن أبي العلاء سعيد بن حمدان بن حمدون الحمداني ، ولد بالموصل سنة عشرين وثلثمائة من الهجرة ، وقيل : سنة إحدى وعشرين وثلثمائة[١].

ونشأ أبو فراس يتيما ، إذ قتل والده أبو العلاء على يد ابن أخيه ناصر الدولة سنة ثلاث وعشرين وثلثمائة[٢]، فعنيت به أمه وابن عمه سيف الدولة الحمداني الذي تعهده صبيا ، فدفع به إلى بعض المدربين يدربونه على الفروسية ، وإلى بعض المعلمين والمؤدبين وفي مقدمتهم العالم اللغوي ابن خالويه ، وسرعان ما ظهرت فروسية أبي فراس ونجابته وتفتقت شاعريته ، فولاه سيف الدولة على منبج ، وأقطعه ضيعة كبيرة بها ، وهو لا يزال شابا في السادسة عشرة من عمره[٣].

وكانت منبج حصنا منيعا لحلب ، وكان على الأمير الشاب أن يدفع عنها هجمات الروم وغاراتهم ، وأن يعمل على إخضاع القبائل المناوئة لابن عمه أو الثائرة عليه ، فأبلى بلاءً حسنا في مقارعة الأبطال ومنازلة الخطوب ، وكشف عن فروسية عجيبة وعقلية نادرة ، وهو لا ينفك – في أثناء ذلك– ينظم الشعر ، وينثر الدر في

---

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان جـ٢ ص ٥٨ ، ٦١ تحقيق إحسان عباس ط دار صادر بيروت سنة ١٩٧٠م.

(٢) المرجع السابق جـ٢ ص ٦١.

(٣) انظر : عصر الدول والإمارات (مصر – الشام) د/ شوقي ضيف ص ٧٠٧ ط دار المعارف سنة ١٩٨٤م.

مكاتباته لسيف الدولة[١]. فازداد إعجابه به ، وصار يميزه بالإكرام على سائر قومه، ويستصحبه في غزواته ، ويستحلفه في أعماله[٢].

وقد أسرته الروم في إحدى غاراتها على منبج ، وكانوا قد تربصوا به ، وباغتوه وهو عائد من الصيد مع أصحابه ، ولمّح له أصحابه بالفرار ، بل فر معظمهم عنه ، لكن نفسه الأبية التي تعودت الكر والإقدام أبت النقيصة ،واختارت الموت على الفرار ، فقاتل الفارس الحمداني قتال الأبطال حتى أثخنته الجراح ، وأصابه سهم بقى نصله في فخذه ، فوقع في الأسر غير آل ولا مقصر في قتال أعدائه[٣].

وأبطأ أو تباطأ سيف الدولة في فدائه لأسباب يختلف الكتاب في أمرها: فمنهم من يرى أن ولاية حلب كانت تتعرض في أواخر أيام سيف الدولة لضغط عسكري شديد من قبل الروم مما جعله يدخر من عنده من رجالات الروم لساعة العسرة ، فلم يتعجل الفداء ولم يبادر إليه[٤].

ومنهم من يرى أن سيف الدولة كان يريده فداء عاما لكل أسرى المسلمين ، لكن الأوضاع الاقتصادية لم تكن في صالحه ، إذ كان إنفاق سيف الدولة على الجهاد والتسلح يكلف ولاية حلب الصغيرة أعباء مالية ضخمة ، فلم يكن في وسعه أن يبادر إلى الفداء ، فلما تهيأت له الظروف المواتية بادر إليه[٥].

---

(١) انظر : تاريخ الأدب العربي لحنا الفاخوري ص ٦٤٧ المطبعة البوليسية بيروت.

(٢) انظر: يتيمة الدهر للثعالبي جـ١ ص ٥٧ تحقيق د / مفيد قميحة ط دار الكتب العلمية بيروت ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.

(٣) راجع : يتيمة الدهر جـ١ ص ٦٠ ، ٦١ ووفيات الأعيان جـ٢ ص ٥٨ ، وعصر الدول والإمارات (مصر – الشام) د / شوقي ضيف ص ٧٠٧ ، ٧٠٨ ومقدمة ديوانه ص ٦ ط دار صادر بيروت.

(٤) انظر : الأسر والسجن في شعر العرب د/ أحمد مختار البزرة ص ٨٧.

(٥) المرجع السابق ص ٨٧ ، وانظر : عصر الدول والإمارات (مصر – الشام) د / شوقي ضيف ص ٧٠٨.

ومنهم من يرى أن سيف الدولة تباطأ في فداء أبي فراس حين خوّفه بعض المقربين إليه من طموحه وشدة اعتداده بنفسه ، وأنه شكل خطراً على سيف الدولة نفسه[١].

وأرى أنه لا مانع من أن تكون هذه السباب مجتمعة قد جاشت في نفس سيف الدولة ، فأدت إلى تباطئه في فداء أبي فراس.

أما الذي لا خلاف عليه فهو أن المحنة قد صقلت تجربة أبي فراس وألهبت مشاعره ، فنفح روملياته نفحة عاطفية قوية بوأته مكانا متميزا بين شعراء عصره ، وسجلت اسمه بارزاً بين أعلام الشعر العربي حتى قالوا : بدئ الشعر بملك وختم بملك ، يريدون بذلك امرأ القيس وأبا فراس الحمداني[٢].

وتم فداء أبي فراس سنة ٣٥٥ هـ في مفاداة عامة بعد سبع سنوات قضاها في أسره ، فعاد إلى حلب ، وولاه سيف الدولة على حمص ، غير أن الأجل لم يمهل سيف الدولة سوى عام واحد بعد فداء أبي فراس ، فخلفه ابنه أبو المعالي ، وتسلم الحكم بالوصاية عليه غلامه التركي قرغويه ، فعز على أبي فراس أن يطيع هذا الغلام، وسولت نفسه الخروج عليه واقتطاع حمص لنفسه ، فأرسل أبو المعالي غلامه قرغويه لمحاربته في معركة دارت قرب حمص ، وانتهت بجرح أبي فراس وقتله سنة ٣٥٧هـ[٣].

---

(١) انظر : تاريخ الأدب العربي لحنا الفاخوري ص ٦٤٨.

(٢) انظر : يتيمة الدهر للثعالبي جـ١ ص ٥٧.

(٣) راجع في ذلك : وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٦١ ، وعصر الدول والإمارات "مصر – الشام" د/ شوقي ضيف ص ٧٠٨ ، وتاريخ الأدب العربي لحنا الفاخوري ص ٦٤٨ ، ومقدمة ديوانه ص ٦ ، وتاريخ الأدب العربي لكارل بروكلمان جـ ٢ ص ٩٢ ترجمة د/ عبد الحليم النجار ط دار المعارف ١٩٧٧م الطبعة الرابعة.

ب - المعتمد بن عباد :

هو أبو القاسم محمد بن عباد بن محمد بن إسماعيل بن عباد اللخمي، كان يلقب بالمعتمد على الله ، وكان والده عباد يلقب بالمعتضد بالله ، وجده محمد يلقب بالظافر المؤيد بالله ، وينتمي نسبهم إلى ولد النعمان بن المنذر آخر ملوك الحيرة[١].

ولد المعتمد في شهر ربيع الأول سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة[٢] وقيل : سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة [٣]، والأول أرجح ؛إذ يدعمه ما روى من أنه حين تولى الملك كان ابن تسع وعشرين سنة وشهرين وأيام زائدة[٤] ، وقد كان توليه للملك بعد وفاة والده المعتضد في جمادى الأولى سنة إحدى وستين وأربعمائة[٥].

وقد قامت دولة بني عباد في إشبيلية سنة ٤١٤هـ على يد أبي القاسم محمد بن إسماعيل جد المعتمد، ثم اتسعت فاستولت على ملك بني حمود بالجزيرة سنة ٤٥٠هـ ، وعلى ملك بني جهور في قرطبة سنة ٤٦١هـ ، وامتدت حتى شملت مرسية

---

(١) راجع فيى أخباره : الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام المجلد الأول / القسم الثاني ص ٤١ تحقيق إحسان عباس ط دار الثقافة بيروت ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م ، ونفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقرى جـ٢ ص ١١٠٤ط المطبعة الأميرية سنة ١٢٧٩هـ ، والحلة السيراء لابن الأبار جـ٢ ص ٣٤ تحقيق حسين مؤنس ط دار المعارف سنة ١٩٨٥م الطبعة الثانية ، ووفيات الأعيان لابن خلكان جـ ٥ ص ٢١ ، ومرآة الجنان لليافعي جـ ٣ ص ١٤٧ نشر مؤسسة الأعلم بيروت سنة ١٣٩٠ هـ / ١٩٧٠م الطبعة الثانية ، والعبر في خبر من غبر للذهبي جـ ٢ ص ٣٥٨ط دار الكتب العلمية بيروت سنة ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.

(٢) الحلة السيراء لابن الأبار جـ ٢ ص ٥٣.

(٣) المصدر السابق جـ ٢ ص ٥٣ ، وانظر : وفيات الأعيان جـ٥ ص ٣٧.

(٤) الحلة السيراء جـ ٢ ص ٥٣.

(٥) الحلة السيراء جـ ٢ ص٥٢ ، ٥٣ ، ووفيات الأعيان جـ ٥ ص ٢٤.

في الشرق ، وأصبح بنو عباد في عهد المعتضد وابنه المعتمد أعظم ملوك الطوائف ، وأفسحهم ملكا ، وأبعدهم صيتا ، وأكثرهم ذكراً في التاريخ والأدب[١].

وكان المعتمد ملكاً شجاعاً ، ذائع الصيت في الكرم والسخاء ، مغدقا على الأدباء والشعراء ، مقربا لهم ، حتى قيل إنه لم يجتمع بباب أحد من ملوك عصره من أعيان الشعراء وأفاضل الأدباء ما كان يجتمع ببابه [٢] ، مما كان له أثره الواضح في ازدهار الأدب بمملكته ،وفي وفائهم له إبّان محنته[٣].

وكان المعتمد إلى جانب ماعرف به من الشجاعة والإقدام والأريحية للعطاء – معروفاً بحسن المعاشرة ، ولين العريكة لأصحابه ، وفيا ، صبوراً على الملمات[٤] ، غير أن بعض الكتاب يأخذون عليه انغماسه في الخمر ، وإسرافه في الملذات[٥].

وكان المعتمد شاعراً مجيداً ، رقيق الطبع ، مرهف الحس ، وهو –بلا شك– أشعر ملوك الأندلس ، يقول ابن الأبار : "ولم يك في ملوك الندلس قبله أشعر منه ولا أوسع مادة"[٦].

ويقول ابن بسام : وللمعتمد شعر كما انشق الكمام عن الزهر ، لو صدر مثله عمّن جعل الشعر صناعة ، واتخذه بضاعة ، لكان رائعا معجبا ، ونادراً مستغرباً ،

---

(١) راجع : عصر الدول والإمارات (الأندلس) د / شرقي ضيف ص ٣٦ ط دار المعارف سنة ١٩٩٩م ، والمعتمد بن عباد الملك الجواد الشجاع الشاعر المرزأ د/ عبد الوهاب عزام ص ٧ دار المعارف سنة ١٩٧٦م.

(٢) وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٢٤.

(٣) راجع الذخيرة لابن بسام م (١) ق (٢) ص ٧٧ وما بعدها.

(٤) انظر : المرجع السابق ص ٦٨ ، ٦٩.

(٥) انظر : الحلة السيراء لابن الأبار جـ ٢ ص ٥٤ ، والمعتمد بن عباد لعلى أدهم ص ١٣٦ ط وزارة الثقافة بالقاهرة (سلسلة أعلام العرب : العدد الثاني).

(٦) الحلة السيراء جـ ٢ ص ٥٤.

فما ظنك برجل لا يُجِدُّ إلا رائيا ، ولا يجيد إلا عابثا؟ وهو مع ذلك يرمي فيصيب ، ويهمي فيصوب.

والعجب من المعتمد أنه مرى سحابه في كلتا حاليه فصاب ، ودعا خاطره فأجاب ، ولا تراجع له من طبع ،بل يومه في هذا الشأن دهر ، وحسنته في هذا الديوان عشر[1].

ولعل أهم ما يميز شعر المعتمد هو أنه كان صورة واضحة لحياته في حالي نعيمه وبؤسه ، فما لبث الرجل غير ثوبه ، ولا تجشم غير طبعه.

أما محنة المعتمد وزوال ملكه ودولة ملوك الطوائف جميعا ، فمردها إلى أمرين أساسين.

أحدهما : ما آل اليه حال ملوك الطوائف من الفرقة والاختلاف ، والتنافس بل التناحر على الملك والسلطان ، إلى الحد الذي استعان فيه بعضهم بنصارى الأندلس على قتال إخوانه المسلمين في حين وحد النصارى صفوفهم ،وأخذوا يستردون المدن الواحدة تلو الأخرى من ملوك الطوائف ، واضطر ملوك الطوائف بما فيهم المعتمد بن عباد إلى دفع الجزية إلى فرناندو الأول ملك قشتالة وليون ، ثم إلى ابنه ألفونسو السادس ، غير أن ألفونسو كان طاغية يشتط في مطالبه وإذلاله لملوك الطوائف ، فلم يجدوا بدا من الاستعانة بيوسف بن تاشفين أمير المرابطين ، فتمكنوا بمساعدته من هزيمة جيوش الفرنجة في موقعة الزلاقة ، لكن يوسف سرعان ما انقض عليهم ، وضم ممالكهم الواحدة تلو الأخرى إلى سلطانه ، منهيا بذلك عصر ملوك الطوائف ، ومؤسسا لدولة المرابطين بالأندلس[2].

---

(١) الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة م (١) ق (٢) ص ٤١ ، ٤٢.

(٢) راجع الذخيرة لابن بسام: م (١) ق (٣) ص ٣٣ ، ووفيات الأعيان لابن خلكان ص ٢٧ وما بعدها ، والمعتمد ابن عباد لعبد الوهاب عزام ص ٣٣.

الأمر الآخر: إسراف ملوك الطوائف في شهواتهم وملذاتهم ، وانتشار مجالس اللهو والخمر والغناء ، الأمر الذي تكثر معه الغفلة ، وتفتر فيه الهمم ، وتكل العزائم.

فبعض الكتاب يأخذون على المعتمد ولعه بالخمر ، وانغماسه في الملذات[١] ، ويرون أن ميل المعتمد إلى جانب اللهو ، وإطلاقه العنان لنسائه وشعرائه كان مثار سخط عليه ، فقد بالغ بعض نسائه في الإسراف والتدلل ، وهام بعض شعرائه المقربين كعبد الجليل بن وهبون في ملذاتهم وشهواتهم إلى درجة بلغت حد الخلاعة والمجون[٢] ، مما أثار حفيظة العلماء والفقهاء ، وجعلهم يفتون بجوار خلع ملوك الطوائف جميعا ، فتذكر بعض المصادر أن يوسف بن تاشفين عندما عزم على خلع ملوك الطوائف وتدبير أمر الأندلس أراد أن يستوثق من حكم الشرع في ذلك فاستفتى العلماء والفقهاء ، فأفتوه بجواز خلع هؤلاء المترفين وقتالهم إن امتنعوا جمعاً لكلمة المسلمين وتقوية لهم على الجهاد ، وأن سير بن أبي بكر قائد المرابطين بالأندلس أرسل إلى ابن تاشفين يخبره بإيثار ملوك الطوائف الدعة واللهو ، واحتمال المرابطين العناء في جهاد العدو ، وسأله رأيه في هؤلاء الملوك ، فكتب إليه أن يأمرهم بالنقلة والرحيل إلى أرض العدوة ، فمن فعل فذاك ، ومن أبى فحاصره وقاتله ، ولتبدأ بمن والى الثغور ، ولا تتعرض للمعتمد بن عباد إلا بعد استيلائك على البلاد، فأخذ سير يستولي على قلاعهم وحصونهم إلى أن انتهى الأمر بحصار المعتمد وأسره ، وانتهاء أمر ملوك الطوائف جميعا ، وقيام دولة المرابطين بالأندلس.

---

(١) الحلة السيراء لابن الأبار جـ ٢ ص ٥٤.

(٢) انظر : نفح الطيب للمقري جـ٢ ص ١١٨٦ ، والمعتمد بن عباد لعلي أدهم ص١٣٦.

وحمل المعتمد ومن كان معه من أهل بيته إلى طنجة فبقوا بها أياما ، ثم نقلوا إلى مدينة مكناسة فأقاموا بها شهراً إلى أن صدر الأمر بنقلهم إلى مدينة أغمات على بعد ثلاثة فراسخ من مدينة مراكش.

وفي أغمات بقى المعتمد أربع سنوات منكفئا على همومه وأحزانه وقيوده إلى أن وافته منيته سنة ٤٨٨هـ[1].

(١) راجع : وفيات الأعيان جـ٥ ص ٢٨ ، والذخيرة لابن بسام م(١) ق (٢) ص ٥٦ ، والكامل في التاريخ لابن الأثير جـ١ ص ١٨٧ ، ص ٢٤٨ ط دار صادر بيروت ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م ، والعبر في خبر من غبر للذهبي جـ٢ ص ٣٥٨ ، والمعتمد بن عباد لعلي أدهم ص ٣٠٦ ، والمعتمد بن عباد لعبد الوهاب عزام ص ٥٧.

المبحث الثانى
مواجهة الأسر ومعاناته النفسية
بين الشاعرين

أ - الشاعران في مواجهة المحنة :

لاشك أن الأسر أمر جد ثقيل على النفس ، وذلك للمجهول الذي ينتظر الأسير وراءه ، بل إن كثيراً من المقاتلين ليرون القتل أهون من الأسر ، وقد سئل أحد الحكماء : هل تجد شيئا أشق على النفس من الموت؟ فقال : نعم ، أن تتمنى الموت فلا تجده ، وكثيراً ما يتمنى الأسير الموت فلا يجده ، غير أن الحر الأبىّ يأبى الفرار على أية حال ، حتى لو أدى به ثباته إلى القتل أو الأسر.

ولم يؤسر أبو فراس أو المعتمد عن كلالة أو ضعف ، إنما أسر كل منهما بعد أن ألقى على الموت بنفسه ، ودافع دفاع الليوث عن عرينها ، وهو ما يعبر عنه المعتمد ابن عباد بقوله[1]:

قد رمت يوم نزالهم ... ألا تحصنني الدروع
وبرزت ليس سوى القميـ ... ـص على الحشا شيء دفوع
وبذلت نفسي كي تسـ ... ـيل إذا يسيل بها النجيع
أجلي تأخر لم يكن ... بهواى ذلي والخضوع
ما سرت قط إلى القتا ... ل وكان من أملي الرجوع[2]
شيم الأولى أنا منهم ... والأصل تتبعه الفروع

---

(١) ديوانه ص ٨٨ ط المطبعة الأميرية بالقاهرة ١٩٥١م ، والذخيرة م١ ق ٢ ص ٥٣.

(٢) فى هذا المعنى يقول قيس بن الخطيم :

وإني في الحرب الضروس موكل ... بتقديم نفس لا أريد بقاءها

ومعنى قيس أبلغ فإذا كان المعتمد يخرج ولا أمل له في الرجوع فإن ابن الخطيم يقدم نفسا لا يريد بقاءها ، وله فضل السبق على المعتمد.

فواضح من الأبيات أن المعتمد كان قد يئس من النجاة ، وانقطع به الأمل ، فلم يجد من الإقدام بدا ، فبرز للقتال حاسرا مجردا من دروعه ، لم يلبس سوى قميصه الذي أراده كفنا لنفسه ، ودفع بنفسه إلى الموت دفعا ، لأنه كان يقدر سوء المصير الذي ينتظره ، لكن أجله تأخر ، وهذا ما لا دخل له فيه ، وحسبه أنه ما سار قط إلى القتال وكان من أمله الرجوع ، وتلك شيمة أبائه وأجداده ، والأصل تتبعه الفروع.

أما أبو فراس فقد لامه بعض الناس ، وخطأوا رأيه في الثبات يوم أسر ، وقالوا لم يكن من الحكمة أن يقاتل ألفا من الروم في سبعين رجلا انكشف معظمهم عنه، فقال[1]:

تكاثر لوامي على ما أصابني ... كأن لم تكن إلا لأسرى النوائب

يقولون : لم ينظر عواقب أمره ... ومثليَ من تجري عليه العواقب

ألم يعلم الذُّلانُ أن بني الوغى ... كذاك سليب بالرماح وسالب[2]

وإن وراء الحزم فيها ودونه ... مواقف تنسى دونهن التجارب

أرى ملء عينيَّ الردى فأخوضه ... إذ الموت قدامي وخلفي المعايب

وأعلم قوما لو تتعتعت دونها ... لأجهضني بالذم منهم عصائب[3]

ومن شرفي أن لا يزال يعيبني ... حسود على الأمر الذى هو عائب

---

(١) ديوانه ص ٣٦ ط دار صادر بيروت.

(٢) الذلان : الذليل المهان.

(٣) تتعتعت : تقلقلت أو اضطربت ، والمراد لو حاولت الفرار أو هممت به.

ويقول [١]:

وقال أصيحابي الفرار أو الردى ... فقلت : هما أمران أحلاهما مر
ولكنني أمضي لما لا يعيبني ... وحسبك من أمرين خيرهما الأسر
يقولون لي: بعت السلامة بالردى ... فقلت : أما والله ما نالني خسر
وهل يتجافى عنيٌّ الموت ساعة ... إذا ما تجافى عنيٌّ الأسر والضر؟
هو الموت فاختر ما علا لك ذكره ... فلم يمت الإنسان ما حيي الذكر

وحين نوازن بين موقف أبي فراس والمعتمد ساعة الأسر نجد أن المعتمد لم يكن لديه ما يُبقي عليه ، فقد أحس بأنه فاقد كلّ شيء لا محالة ، واستشعر أن الموت بعز خير من حياة الذل والهوان ، فلم نلحظ في شعره أدنى تردد أو ندم على موقفه ، بل إن كان من ندم فعلى تأخر أجله ، وعدم دنو ساعته.

أما أبو فراس فمع أنه قتال الأبطال ، وألقى على الأعداء بنفسه ، فإن رغبته في الموت لم تكن كرغبة المعتمد ، إنما ثبت خشية العار ، فآثر التي فيه منيته على التي فيها ذمه ومنقصته ، وقد كان يقدر أن وراءه حساداً شانئين لو أحجم أو نكص لأشبعوه لوما ، وأوسعوه ذما ، ونسبوه إلى الضعف والخور ، واتهموه في شجاعته وفروسيته ، وربما في ولائه لسيف الدولة ، وفي ذلك يقول أبو فراس [٢]:

ولو لم تنل نفسي ولاءك لم أكن
لأوردها في نصره كل مورد
ولا كنت ألقى الألف زُرْقا عيونها
بسبعين فيها كل أشأم أنكد

---

(١) ديوانه ص ١٦٠.

(٢) ديوانه ص ٨٥.

على أن هؤلاء الحساد مع استنكارهم لموقفه ، وتخطئتهم لرأيه فإنهم ليحسدونه على الأمر الذي يعيبونه به .

وقد رضي أبو فراس لنفسه أن يقال عنه: "غير موفق" لكنه لم يقبل أن يقال عنه: "غير نجيب" يقول[1]:

تجشمت خوف العار أعظم خطة

وأملت نصراً كان غير قريـــــب

رضيت لنفسي كان غير موفـــق

ولم ترض نفسي كان غير نجيـــب

ولا يخفى ما في قوله : "تجشمت" من إكراهه نفسه على القتال وحملها عليه حملا ، مع تصريحه بأنه تجشم ما تجشم مخافة العار ، وأنه كان بين أمرين أحلاهما مر ، فاختار الردى على الفرار ، و آثر ما لا يعيبه ، على أن الأمر كان فوق مستوى التروي والتفكير " مواقف تنسى دونهن التجارب".

وبذلك يتضح أن ثبات المعتمد كان يأسا من الحياة ، وخوفا من سوء المصير الذي ينتظره ، أما ثبات أبي فراس فقد كان خشية العار، وكبتا للشانئين والحساد.

ب – الأسر وآثاره النفسية عند الشاعرين :

لكل من الشاعرين معاناته ، فالمعتمد إنما كان يعاني تقلب الأيام به ، وتنكرها له ، فقد أحالت عزه ذلاً ، ونعيمه بؤساً ، وغناه فقراً ، وانطلاقه أسراً وحبسا ، وقيداً وغلا ، بل قيوداً وأغلالا، كما أنه كان يعاني سوء معاملة أعدائه الذين تنكروا له ، فلم يحفظوا له عهداً ولا ذمة ، أما أبو فراس فكانت معاناته مع ابن عمه سيف الدولة أكثر منها مع الروم.

---

(١) ديوانه ص ٤٠.

وتظهر معاناة المعتمد من اللحظة الأولى لقدومه أغمات ، فقد أنزلوه بها بلا خباء يأويه أو يستره من العيون الرامقة ، فطلب من حواء بنت تاشفين خباءً عارية ، فاعتذرت بأنه ليس عندها خباء ، فكبر ذلك على نفسه ، وأحس بالهوان ، فأنشأ يقول[1]:

هم أوقدوا بين جنبيك نارا ... أطالوا بها في حشاك استعارا

أما يخجل المجد أن يرحلو ... ك ولم يصحبوك خباءً معارا

فقد قنعوا المجد إن كان ذا ... ك وحاشاهم منك خزيا وعارا

يقل لعينيك أن يجعلوا ... سواد العيون عليكم شعارا

تراهم نسوا حين جزت القفا ... ر حنينا إليهم وخضت البحارا

بعهد لزوم لسبل الوفا ... إذا حاد من حاد عنها وجارا

وقد ضيق على المعتمد لدرجة ألجأت إحدى بناته إلى الغزل للناس سدا للجوعة وسترا للعورة ،وقد أدخل عليها فيما أدخل غزل لبنت عريف شرطته ، وكان هذا العريف يقف بين يديه – أيام مجده – يدفع الناس يوم بروزه لهم ، فعز على نفس المعتمد الأبية ما صار إليه حال بناته ، فقال يخاطب الوزير الأندلسي أبا العلاء زهر بن عبد الملك بن زهر الإشبيلي ، وكان قد زار المعتمد ودعا له بطول البقاء[2]:

دعا لي بالبقاء وكيف يهوى ... أسير أن يطول به البقاءُ

أليس الموت أروح من حياة ... يطول على الشّقيِّ بها الشّقاء

أأرغب أن أعيش أرى بناتي ... عواري قد أضرّ بهنّ الجفاءُ

---

(١) ديوانه ص ٩٧.

(٢) ديوانه ص ٩٠.

خـوادمَ بنـت مـن قـد كـان أعلـى ... مراتبـــه - إذا أبـــدو - النّـــداء

وطـردُ النّـاس بـين يـدي ممـرِّي ... وكفُّهـــمُ إذا غـــصَّ الفنـــاء

وركـــض عـــن يمـــين أو شمـــال ... لـــنظم الجـــيش إن رفـــع اللـــواء

يُعنيّـــــه أَمَـــــام أو رواء ... إذا اختـــلَّ الأمـــامُ أو الـــوراءُ[1]

وإلى جانب معاناته النفسية وإحساسه بالذل والهوان كان المعتمد يعاني من شدة القيود والأغلال التى أثقلوه بها ، يقول واصفا أثر القيد في ساقه[2]:

تعطف في ساقي تعطف أرقـــــم

يساورها عضا بأنياب ضغيـــــم

<u>ويقول متحسرا[3]:</u>

قد كان كالثعبان رمحك في الـــــورى

فغدا عليك القيد كالثعبـــــــان

متمردا يحميك كل تمـــــــــرد

متعطفا لا رحمة للعانـــــــــي

قلبي إلى الرحمن يشكو بثـــــــــه

ما خاب من يشكو إلى الرحمـــــن

---

(١) يعنيه : يشغله ، يقال : عُنى فلان بالأمر إذا اهتم وشغل به.

(٢) ديوانه ص ١١١.

(٣) الذخيرة م ١ ق٢ ص ٦٢ ، وديوانه ص ١١٥ ، وروايته "متمرد بحذاك".

ولم يكن أمام المعتمد من يشكو إليه سوى ربه ، فيلجأ إليه بالحمد الممزوج بالشكوى ، فيقول [١]:

لك الحمد من بعد السيوف كبـــــــول

بساقيٍّ منها في السجون حجـــــول[٢]

ويوازن في تحسر بين ماضيه وحاضره ، فيقول [٣]:

تبدلت من غز ظل البنـــــــــــود

بذل الحديد وثقل القيـــــــــود[٤]

وكان حديدي سناناً ذليقـــــــــا

وعضبا رقيقا صقيل الحديـــــــد[٥]

فقد صار ذاك وذا أدهمـــــــــا

يعض بساقيّ عض الأســـــــود[٦]

وكان المرابطون قد شددوا عليه في القيود خشية أن يؤدي إفلاته إلى ثورته عليهم ، ومحاولته استرداد ملكه ، أما ما دام المعتمد في أسره فلا خوف من الثورة أو التمرد ، وبخاصة بعد أن قضوا على آخر أمل له بالقضاء على ثورة ابنه عبد الجبار وقتله[٧].

---

(١) ديوانه ص ١١١.

(٢) الكبول : القيود والأغلال ، والحجول : جمع حجل ، وهو القيد ، يقال : حجل الدابة إذا قيدها بالحجال.

(٣) ديوانه ص ٩٤.

(٤) البنود : جمع بند ، وهو العلم واللواء والراية ، تكون للقائد أو الفارس.

(٥) ذليقا : حاداً قاطعا.

(٦) أدهما : قيداً.

(٧) انظر في ثورة عبد الجبار بن المعتمد وقتله: نفح الطيب للمقري جـ٢ ص ١١٠٤.

أما أبو فراس فكانت معاناته مع ابن عمه أكثر منها مع الروم ، إذا كان يشعر بتباطئه في فدائه ، ويعد ذلك ضربا من التخاذل وعدم الوفاء ، وكان الروم يؤكدون له ذلك ، ويشجعونه على مكاتبة سيف الدولة ، لأنهم كانوا يرغبون في فداء بعض رجالاتهم ، وفيهم ابن قائدهم بردس ، فلما وقع ابو فراس في أيدي الروم كتب بردس إلى سيف الدولة يسأله المفاداه ، ولكن سيف الدولة لم يسرع إلى إجابته ، فعز ذلك على أبي فراس الذي كان ينتظر غير ذلك ، فإلا يكن ودّ ونسب فمصلحة الإسلام وحاجة الجهاد إليه تقتضي الإسراع في فدائه.

وقد زاد من ألمه النفسي أن يسارع الروم إلى فداء ابن أختهم ولا يسارع سيف الدولة إلى فدائه ، وفي ذلك يقول[1]:

بنـي عمنـا نحـن السـواعد والظبـا ... ويومـك يومـا أن يكـون ضـراب[2]

وإن رجـالا مـا ابـنكم كـابن أخـتهم ... حريـون أن يقضـى لهـم ويهـابوا

فعـن أي عـذر إن دُعـوا ودُعيـتم ... أبيـتم – بـني أعمامنـا – وأجـابوا

ومـا أدعـي مـا يعلـم الله غـيره ... رجـاب علـيّ للعفـاة رحـاب

وأفعالـه للـراغبين كريمـة ... وأموالـه للطـالبين نهـاب

ولكـن نبـا منـه بكفـي صـارم ... وأظلـم في عـينيّ منـه شـهاب

فـإن لم يكـن ودّ قـديم نعـده ... ولا نسـب بـين الرجـال قـراب

فـأحوط للإسـلام ألا يضـيعني ... ولـي عنـك فيـه حوطـة ومنـاب

---

(١) ديوانه ص ٢٦.

(٢) الظبا : جمع ظُبَة (بضم الظاء وفتح الباء) ، وهي حد السيف والسنان والخنجر.

وكان فى تأخر سيف الدولة مدعاة لسوء الظن بـه ، ومـدخل كـبير لهـواجس أبي فراس تجاهه ، يقول[1]:

وقد كنت أخشى الهجر والشمل جامع
وفي كل يوم لفتـــــة وخطـــــاب
فكيف وفيما بيننا ملك قيصـــــر
وللبحر حولي زخرة وعبـــــاب

وتبلـغ الماسـاة ذروتهـا عنـدما يصـله أن سـيف الدولـة ينسـبه إلى الخمـول ، ويهون من شأنه ، وذلك أن سيف الدولة بلغه أن بعض الأسرى قـال : إن ثقـل هـذا المال على سيف الدولة كاتبنا فيه صاحب خراسان وغيره من أصحاب البلـدان وخففنـا عن الأمير ، فاتهم سيف الدولة أبا فراس بهذا القول لضـمانه المـال للـروم ، فقـال : ومن أين يعرف أهل خراسان ؟ فكنت إليه أبو فراس[2]:

أسيف الهدى وقريع العـــــرب
علام الجفاء؟ وفيم الغضـــــبْ ؟
وما بال كتبك قد أصبحـــــت
تنكبني مع هــذا النَّكَـــــبْ؟
أتنكر أنى شكوت الزمـــــان
وأني عتبتك فيمن عتـــــب؟
فألا رجعت فأعتبتنـــــي
وصيرت لي ولقولـي الغلـــــب
فلا تنسبنّ إليّ الخمـــــول
عليك أقمت فلم أغتـــــرب

---

(١) ديوانه ص ٢٧.

(٢) ديوانه ص ٢٨.

وأصبحت منك فإن كان فضـــــــــل

وإن كان نقص فأنت السبـــــــــب

وإن خراسان إن أنكـــــــــــرت

عُلاى فقد عَرَفَتْها حلـــــــــب

ومن أين ينكرني الأبعـــــــــدون؟

أمن نقص جد؟ أمن نقـــص أب ؟

ألست وإياك من أســـــــــرة

وبيني وبينك فوق النســـــــــب؟

ولا شك أن أبا فراس إلى جانب هذه المعاناة النفسية تجاه خذلان سيف الدولة له كان يعـاني ذل الأسـر ومواجهـة المجهـول ، يقـول في إحـدى قصـائده ومكاتباتـه لسيف الدولة [1]:

دعوتك للجفن القريح المسهـــــد

لدي وللنوم القليل المشـــــــرد

وما أنا إلا بين أمر وضـــــــده

يجدد لي في كل يوم مجـــــــدد

فمن حسن صبر بالسلامة واعـدي

ومن ريب دهر بالردى متوعـــدي

أقلب طرفي بين خل مكبـــــل

وبيـــن صفـــي بالحديد مصفد

(١) ديوانه ص ٨٢ ، ٨٣.

وحين ثقلت عليه جراحه كتب في مطلع قصيدة أرسل بها إلى أمه [١]:

مصابي جليل والعزاء جميـــــل
وظني بأن الله سوف يديـــــل
جراح تحاماها الأساة مخوفـــة
وسقمـان بـاد منهـا ودخيـل
وأسر أقاسيه وليل نجومـــــه
أرى كل شيء غيرهن يـــزول
تطول بي الساعات وهي قصيـرة
وفي كل دهر لا يسرك طـــول

ولكنه كان يتجلد ويتصبر حتى لا يَشمت به حساده وشانئوه ، يقول [٢]:

وإني لمجزاع خلا أن عزمـــة
تدافع عني حسرة وتغالـــب
ورقبة حساد صبرت لوقعهـــا
لها جانب مني وللحرب جانـب

موازنة :

أ – حين نوازن بين حال المعتمد وحال أبي فراس في أسرهما نجد أن المعتمد كان قد تسلل إليه اليأس من النجاة ، وبخاصة بعد القضاء على ولديه الراضي الذي كان على رندة وعبد الجبار الذي كان على حصن أركش وقتلهما ، وهو ما نلمسه في قوله[٣]:

أسر وعسر ولا يسر أؤملـــه
أستغفر الله كم لله من نظـــر

---

(١) ديوانه ص ٢٣٢.

(٢) ديوانه ص ٣٩.

(٣) ديوانه ص ١٠٠.

ومن ثمة جاءت عاطفته هادئة هدوءاً يتناسب وما نظمه من أنات وتوجعات ، أو معاتبات للدهر ، أو تأملات في حوادثه وصروفه ، على شاكلة قوله[١]:

فيما مضى كنت بالأعياد مسرورا
فساءك العيد في أغمات مأســـورا
ترى بناتك في الأطمار جائعـــــة
يغزلن للناس ما يملكن قطميـرا[٢]
برزن نحوك للتسليم خاشعـــــة
أبصارهن حسيرات مكاسيـــــرا
قد كان دهرك إن تأمره ممتثـــلا
فردك الدهر منهيا ومأمـــــورا
من بات بعدك في ملك يسر بـــه
فإنما بات بالأحلام معـــــرورا

لقد عز عليه حاله وحال بناته يغزلن للناس بعد أن كن مخدومات منعمات ، على أن هذه الحرفة لا تفي بسد جوعتهن أو ستر عورتهن ، وقد برزن إليه يوم العيد في أطمار بالية ، مما جعله يتفجر لوعة وأسى ، ويتذكر تلك الأيام الخوالي موازنا بين حالي الدهر ، يوم أن كان هو الآمر الناهي ويوم أن صار مأموراً منهيا ذليلا كسيرا ، ويختم أبياته بحكمة مفادها أن من ركن الدهر واغتر بملكه إنما يبيت مغروراً بالأحلام أو الأوهام ، لأن الدنيا لا تدوم على حال ، ولا يثبت لها عهد.

أما أبو فراس فصاحب عاطفة ملتهبة ، جياشة ، متوقدة ، وكانت أشد ما تكون ثورة وتدفقا عندما يشعر بتجاهل سيف الدولة له ، أو عندما يتعرض لشيء من

---

(١) ديوانة ص ١٠٠ ، ١٠١ والذخيرة لابن بسام م١ ق ٢ ص ٦١ ، وقلائد العقيان للفتح بن خاقان ص ٢٥ تصحيح محمد الصباغ ط المطبعة الخديوية ببولاق سنة ١٢٨٣هـ

(٢) الأطمار : جمع طمر ، وهو الثوب الخلق البالى.

الإذلال والقهر ، على نحو ما كان منه تجاه الدمستق حين قال له وهو في أسره : إنما أنتم كتاب لا تعرفون الحرب ، فرد عليه أبو فراس: نحن نطأ أرضك منذ ستين سنة بالسيوف أم بالأقلام؟ ثم أنشأ يقول[١]:

أتزعم يا ضخم اللغاديد أننـــــــــا
ونحن أسود الحرب لا نعرف الحـربا
فويلك من للحرب إن لم نكن لهـــــا
ومن ذا الذي يمسي ويضحى لها تربـا
وويلك من أردى أخاك بمرعـــــــش
وجلل ضربا وجه والدك الغضبـــــا[٢]
وويلك من خلى ابن أختك موثقـــــا
وخلاك باللقان تبتدر الشعبـــــــا[٣]
أتوعدنا بالحرب حتى كأننـــــــــا
وإياك لم يعصب بها قلبنا عصبـــــا
لقد جمعتنا الحرب من قبل هـــــذه
فكنا بها أُسْداً وكنت بها كلبـــــــا
بأقلامنا أجرحت أم بسيوفنـــــــا
وأُسْداَ الشرى سقنا إليك أم الكتبـــــا
تفاخرنا بالطعن والضرب في الوغـــي
لقد أوسعتك النفس يابن استها كذبـــا

---

(١) ديوانه ص ٤٢.

(٢) جلل وجه والدك العضبا : عمه ضربا بالعضب وهو السيف.

(٣) اللقان : بلدة بالروم وراء خرشنة ، والشعب :الطريق في الجبل ، والمراد أنه فر هاربا.

إنه أشبه ما يكون بأسد هصور حبس في قفص حديدي ، وحيل بينه وبين فريسته ، فهو يغلي ويهتاج ، ويثور ، ويكاد يحطم الأسوار والقضبان ، لكن القبضة علية قوية ، والحصار محكم ،والظروف غير مواتية ، فما كان يملك سوى تفجيرها صرخات شعرية قوية تعادل تلك الشحنات المكبوته في خلجات نفسه.

وفي ذلك رد واضح على بروكلمان الذي يزعم أن أسر أبي فراس لم يكن له أثر في شعره[١].

على أنني أؤكد أن بروكلمان قد تعجل في هذا الحكم ، وكاد يتناقض مع نفسه حين ذكر في الترجمة نفسها أن أبا فراس صنع في أسره أشعاراً مؤثرة يشكو فيها لذويه سوء حاله ، ومنها قصيدته التي خاطب به أمه[٢].

ب – أن معاناة المعتمد كانت في يأسه من النجاة ،وفي قيوده وأغلاله ، وما آل إليه حاله في الأسر من الحاجة والعوز ، وهو ما يعبر عنه بقوله[٣]:

ذل وفقر أدالا عـــزة وغنـــــــى

نعمى الليالي من البلوى على كثـــب

وقوله [٤]:

وأنا اليوم رهن أســـر وفقـــــــر

مستبـــاح الحمـــــى مهيض الجنـاح

---

(١) انظر : تاريخ الأدب العربي لكارل بروكلمان جـ٢ ص ٩٣.

(٢) المراجع السابق جـ ص ٩٢ ، وهي التي مطلعها :

أيا أم الأسير سقاك غيـــث بكره منك ما لقي الأسيـــــر

ديوانه ص ١٦٢ ، وسيأتي الحديث عنها في المبحث التالي.

(٣) الذخيرة م ١ ق ٢ ص ٦٨.

(٤) ديوانه ص ٩٤.

وقوله [١]:

وأبقى أسام الذل في أرض غُربـــــة

وما كنت لولا الغدر ذاك أســـــام

أما أبو فراس فكانت معاناته مع قومه وبخاصة ابن عمه سيف الدولة الذي تباطأ في فدائه أكثر منها مع الروم ، وهو ما يعبر عنه بقوله[٢]:

إذا خفت من أخوالي الروم خطـــة

تخوفت من أعمامي العرب أربعـــا

وإن أوجعتني من أعاديّ شيمـــة

لقيت من الأحباب أدهى وأوجعـــا

جـ - أن الأسر كان قد أخذ من نفس المعتمد ، فاستسلم لقدره المحتوم ،وأخذ يتأسى برَوح الحكمة ، ويرسلها في طيات شعره ، على شاكلة قوله[٣]:

أرى الدنيا الدنية لا تواتـــي

فأجمل في التصرف والطِـــلاب

ولا يغررك منها حسن بـــرد

له علمان من ذهب الذهـــاب

فأولها رجاء من ســـراب

وآخرها رداء من تـــراب

---

(١) الذخيرة م١ ق ٢ ص ٦٦.

(٢) ديوانه ص ١٨٤.

(٣) ديوانه ص ٩٣.

أما أبو فراس فكان يتجلد ويتماسك ، ويظهر اعتداده بنفسه ، ويُري الشامتين أنه لريب الدهر لا يتضعضع ، وهو ما يلخصه في نحو قوله[١]:

وما غض مني هذا الإســـــــــار
ولكن خلصت خلوص الذهـــــــب

وقوله[٢]:

متى تخلف الأيام مثلي لكم فتـــــى
طويل نجاد السيف رحب المقلـــــد
فإن تفتدوني تفتدوا شرف العـــــــلا
وأسرع عواد إليها معـــــــــود
وإن تفتدوني تفتدوا لعلاكـــــــــم
فتى غير مردود اللسان ولا اليـــد
يدافع عن أعراضكم بلسانـــــــه
ويضرب عنكم بالحسام المهنـــــد
فما كل من شاء المعالي ينالهـــــا
ولا كل سيار إلى المجد يهتـــــدي

وقوله[٣]:

فإن عدت يوما عاد للحرب والعـــلا
وبذل الندى والجود أكرم عائـــــد

---

(١) ديوانه ص ٢٩.

(٢) ديوانه ص ٨٤.

(٣) ديوانه ص ٨٩.

مرير على الأعداء لكن جـــــــاره

إلى خصب الأكناف عذب المـــوارد[1]

منعت حمى قومي وسدت عشيرتـــي

وقلدت أهلي غرّ هذى القلائـــــــد

خلائق لا يوجدن في كل ما جـــــد

ولكنها في الماجد ابن الأماجـــــــد

(١) الأكناف : جمع كنف ، ويطلق الكنف على جانب الشيء وجـواره ، ومـا يشمله الإنسـان برعايتـه ، يقـال: كنف فلانا إذا ضمه إليه وشمله بعنايته ، وكنف الشيء إذا حفظه وصانه ، والمراد أن جاره عزيـز مكـــرم فى جواره.

المبحث الثالث

أثر الأسر في تشكيل أغراضهما الشعرية

لاشك فى أن محنة الأسر وما يكابده الشاعر من آلامها ومعاناتها النفسية إنما تنعكس على تشكيل أغراضه الشعرية ، وتؤثر تأثيرا واضحا سواء في مضمونها أم في معجمها الشعري وبنيتها الأسلوبية ، وهو ما نجده واضحا في شعر الأسر عند أبي فراس والمعتمد بن عباد ، فقد ذهب أكثر شعرهما في الأسر في تصوير المحنة ، وما يتصل بها من معاناة الأسر ، وما يصاحب ذلك من الصلابة والاعتداد بالنفس كما نجد في شعر أبي فراس ، أو الرضا بالقضاء وبكاء الحظ العاثر كما نجد في شعر المعتمد.

وقد نبعت سائر أغراضهما الشعرية في الأسر من وحي المحنة وانبثقت من أعماقها على النحو التالي :

أ- الرثاء :

والرثاء هو شعر العواطف الأليمة ، والنفوس الجريحة المكلومة ، وقد سئل أحد الأعراب : لماذا تعدون الرثاء أصدق أشعاركم؟ فقال : لأننا نقوله وقلوبنا محترقة[1]:

والشاعر الراثي في أسره إنما يبكي مصابه وحاله معا ، ولاسيما إذا كان فقد من فقد يرتبط بتجربة الشاعر ومحنته ارتباطا وثيقا.

ومن هذا اللون قصيدة أبي فراس في رثاء أمه ، فعندما بلغه موتها وهو في أسره أرسلها أنات حزينة ، وحسرات باكية مبكية ، حيث يقول[2]:

أيا أم الأسير سقاك غيث ... إلى من بالفدا يأتي البشير؟

إذا ابنك سار في بر وبحر ... فمن يدعو له أو يستجير؟

---

(١) انظر : الرثاء في الشعر العربي د / محمود حسن أبو ناجي ص ١١ ط مكتبة الحياة بيروت.

(٢) ديوانه ص ١٦٢ ، ١٦٣.

حـــرام أن يبيـــت قريـــر عـــين ... ولـــؤم أن يلـــم بـــه الســـرور

وقـــد ذقـــت الرازيـــا والمنايـــا ... ولا ولـــد لـــديك ولا عشـــير

وغـاب حبيـب قلبـك عـن مكـان ... ملائكـــة الســـماء بـــه حضـــور

أيـــا أمـــاه كـــم هـــم طويـــل ... مضـــى بـــك لم يكـــن منـــه نصـــير

أيـــا أمـــاه كـــم ســـر مصـــون ... بقلبـــك مـــات لـــيس لـــه ظهـــور

أيـــا أمـــاه كـــم بشـــرى بقربـــي ... أتتـــك ودونهـــا الأجـــل القصـــير

إلى مـــن أشـــتكي؟ ولـــن أنـــاجي ... إذا ضـــاقت بمـــا فيهـــا الصـــدور؟

بـــأي دعـــاء داعيـــة أوقـــى؟ ... بـــأي ضـــياء وجـــه أســـتنير؟

بمـــن يســـتدفع القـــدر المـــوقى؟ ... بمـــن يســـتفتح الأمـــر العســـير؟

على أن هذا التدفق العاطفي الفريد كان له روافده ومقوماته، فقد حبست هذه الأم نفسها على أبي فراس بعد مقتل والده ، فنشأ يتيما في حجرها تتعهده وترعاه ، وتمني نفسها الأماني ببلوغه حد الشباب ، حتى شب عن الطوق فأبدى شجاعة وفروسية نادرة ، وشاعرية متميزة ، وصار ملء السمع والبصر ، ولكن القدر لم يمهلها فيه كثيرا، فكانت فجيعتها بأسره ، فانكفأت على أحزانها ، وكان كل أملها أن يبادر سيف الدولة إلى فدائه ، فلم تمل الغدو والرواح عليه ، تتشفع بل تتوسل راجية أن يسرع في مفاداة فلذة كبدها ، لكن دون جدوى ، وكان ردها خائبة يعد مصابا آخر على نفسية أبي فراس ، وفي ذلك يقول [1]:

لـــولا العجـــوز بمنـــبج ... مـــا خفـــت أســـباب المنيـــه

ولكـــان لـــي عمـــا سألـــ ... ـــت مـــن الفـــدا نفـــس أبيـــه

(١) ديوانه ، ص ٣١٨.

لكـــــــن أردت مرادهـــــــا ولـــــو انجـــذبت إلى الدنيـــــه

وأرى محامـــــــاتي عليـــــــــ ـــــها أن تضـــام مـــن الحميـــه

يـــــا أمتـــــا لا تيأســـــي لله ألطـــــــاف خفيـــــــه

كـــم حـــادث عنـــا جـــلا هُ ، وكـــم كفانـــا مـــن بليـــه

أوصـــيك بالصـــبر الجميـــــ ـــــل فإنـــه خـــير الوصـــيه

وبينما هو كذلك يوصيها بالصبر ،و يعيش على الأمل ، وينتظر اليوم الذي يذهب إليها البشير فيه بإطلاق سراحه – يأتيه النذير بخبر وفاتها ، فتظلم الدنيا في عينيه ، فقد ماتت أمه حزينة مقهورة ، وحيل بينه وبين وادعها ، ولا شك أنه عاش بروحه أو تمثل آخر لحظات حياتها ، وهي تلفظ أنفسها داعية له بانكشاف كربه ، وجلاء غمته ، وإنه ليعيش على أمل استجابة الله لدعائها ، فمن ذا يقوم مقامها في الدعاء له إذا سار في بر أو بحر؟ وبمن يستدفع القدر الموقى؟ وبمن يستفتح الأمر العسير؟ ولن يشتكي أبو فراس؟ ومن يناجي إذا ضاقت بما فيها الصدور؟ لا شك أن أبا فراس استرجع أو استحضر كل ذكرياته معها ، فكانت تلك الأنات الحزينة الباكية، التي تعبر بحرارة وصدق عن نفس جريحة موتورة.

أما المعتمد فكان مصابه في أولاده الذين أعدهم للشدائد والمحن ، بل للملك والسلطان ، فإذا المنية تجهز عليهم واحداً تلو الآخر في وقت هو أحوج ما يكون إليهم.

ورأي المعتمد وهو في أسره يوما قمرية حزينة وحيدة فقدت إلفها أو افتقدته، وأمامها وكر فيه طائران يغردان ، فأهاج ذلك أحزانه ، وذكره فقد أبنائه ، فأنشأ يقول[١]:

بكت أن رأت إلفين ضمها وكـــــــر

مساء وقد أخنى على إلفها الدهـــــر

بكت لم تُرِقْ دمعا وأسبلت عبـــــرة

يقصّر عنها القطر مهما همى القطـــر

بكت واحداً لم يشجها غير فقـــــده

وأبكى لألاّف عديدهم كثـــــــــر[٢]

بنيّ صغير أو حبيب موافـــــــق

يمزق ذا فقر ويغرق ذا بحـــــــر

ونجمان زين للزمان احتواهـــــا

بقرطبة النكداء أو رندة القبـــــر[٣]

غدرت إذاً إن ضن جفني بقطـــــرة

وإن لومت نفسي فصاحبها الصبـــر

فقل للنجوم الزهر تبكيهما معـــــي

لمثلهما فلتحزن الأنجم الزهـــــر

---

(١) ديوانة ص ٦٨.

(٢) المراد بالألآف (هنا) : الأهل والإخوان والأصدقاء ، وكل من يأنس الإنسان بقربه.

(٣) يعني بهذا البيت ولديه الراضي والمأمون.

ومن ثمة فإنه لا يقوى على الصبر لفقد أبنائه وفقد آماله ، مع ما صار إليه حاله من الذل والهوان ، يقول في رثاء ولديه المأمون والراضي[١]:

يقولون صبراً لا سبيل إلى الصبـــــــر
سأبكي وأبكي ما تطاول من عمـــري
هوى الكوكبان الفتح ثم شقيقـــــــه
يزيد فهل بعد الكواكب من صبـــر[٢]
هوى بكما المقدار عني ولم أمـــــــت
وأدعى وفيا قد نكصت إلى الغـــــدر
توليتما والسن بعد صغيـــــــــرة
ولم تلبث الأيام أن صغرت قـــــدري
فلو عدتما لاخترتما العود في الثـــرى
إذا أنتما أبصرتمانى تماني في الأســر
يعيد على سمعي الحديد نشيـــــــده
ثقيلا فتبكى العين بالجس والنقـــر
معي الأخوات الهالكات عليكمـــــا
وأمكما الثكلى المضرمة الصـــــــدر
أبا خالد أورثتني البث خالـــــــداً
أبا النصر مذ ودعت ودعني النصـــر[٣]

---

(١) ديوانه ص ١٠٥ ، والذخيرة لابن بسام م ١ ق ٢ ص ٦٩ ، وانظر المعتمد بن عباد لعبد الوهاب عزام ص ٩٦.

(٢) رواية الديوان "فهل عند الكواكب من خُبْر"، والفتح هو ابنه المأمون ، وكان يكنى بأبي الفتح وأبي نصر، ويزيد هو ابنه الملقب بالراضي.

(٣) البث : الحزن ، و "أبو خالد" كنية الراضي ، و "أبو النصر" كنية المأمون.

وكأنى بالمتعمد في هذه الأبيات يعزي نفسه ، ويرى أن الموت أرحم من حياة الذل والهوان ، وأن ابنيه لو عادا إلى الحياة فأبصرا حاله لاختارا العود في الثرى على أن يريا أباهما على ما هو عليه من الذل والهوان ، والقيود والأغلال.

ونلحظ فرقا واضحا بين أبي فراس الذي كان لا يزال معلقا بالأمل في الفداء حيث يقول : "إلى من بالفدا يأتى البشير" ، وبين المعتمد الذي – على ما يبدو- كان قد فقد ما بقى من بصيص أمل بالقضاء على ولديه الراضي وعبد الجبار ؛ إذ يخاطب ابنه الراضي الملقب بأبي نصر بقوله: "أبا النصر مذ ودعت ودعني النصر".

ومع ذلك فقد ذرف كل من أبي فراس والمعتمد دم قلبه قبل أن يذرف ماء عينه ، فما كان يبكيان مصابا واحداً ، إنما كان يبكيان حظا عاثرا ، ونوائب متتابعة متداخلة ، على حد قول أبي فراس[1]:

وإني للصبور على الرزايـــــــــا

ولكن الكِلام على الكِـــــــــلام[2]

جروح ما يزلن يَرِدْنَ منـــــــــي

على جرح قرب العهـــــــــد دام

ب- الاستعطاف والعتاب والشكوى:

وتنبع هذه الفنون لدى الشاعر الأسير من وحي تجربته ، ولا يكاد يخلو شعر أحد في الأسر من الإلمام بطرف منها ، وإن تباينت طرائقهم وتفاوتت درجات تناولهم لهذه الفنون ، فقد يغلب على أحدهم طابع العتاب ، ويغلب على آخر جانب الشكوى ، وعلى ثالث الاعتذار والاستعطاف ، وفق الظروف المحيطة بأسر كل منهم ومدى صلابة نفسية الأسير أو ضعفه وتهالكه على النجاة بنفسه.

---

(١) ديوانه ص ٢٧٥ ويتيمة الدهر جـ١ ص ٧٩.

(٢) الكلام (بكسر الكاف) : الجراح.

أما أبو فراس فقد غلب عليه جانب العتاب ، لأنه كان يرى أن روابط القربى والنسب بينه وبين سيف الدولة توجب له حقا في المفاداة ، وأن سيف الدولة مقصر في حقه ، متباطئ في فدائه ، غير مقدر ولاءه له أو بلاءه في سبيل توطيد أركان ملكه، ومن ثمة كان أبو فراس كثيراً ما ينحو منحى العتاب تجاه ابن عمه ، ومن ذلك قصيدته التي أرسلها إلى سيف الدولة معاتبا، وكان قد بلغه أن أمه ذهبت من منبج إلى حلب تكلم سيف الدولة في مفاداته فردها سيف الدولة خائبة ، فبعث إليه بقصيدة يقول فيها[1]:

بأي عـذر رددت والهـــــة

عليك دون الورى معولهـــــا[2]

جاءتك تمتاح رد واحدهـــــا

ينتظر الناس كيف تقفلهـــــا[3]

إن كنت لم تبذل الفداء لهـــــا

فلم أزل في رضاك أبذلهـــــا

تلك المودات كيف تهملهـــــا؟

تلك المواعيد كيف تغفلهـــــا؟

تلك العقود التي عقدت لنـــــا

كيف وقد أحكمت تحللهـــــا؟

أرحامنا منك لِمَ تقطّعهـــــا

ولم تزل دائبا توصلهـــــا؟

---

(١) ديوانه ص ٢٤٣.

(٢) والهة : حزينة.

(٣) تمتاح : تطلب ، يقال : امتاح فلانا : إذا أتاه يطلب فضله.

أين المعالي التي عرفت بهـــــــــا

تقولها دائما وتفعلهـــــــــــا؟

ويبلغه أن سيف الدولة عاتب عليه تعجلـه في طلـب الفـداء ، فيشـتاط غضـبا وحسرة وأسى ، ويرى أن سيف الدولة أولى بهذا العتاب منه ، فيكتب في قصيدة تكاد تتفجر من التدفق العاطفي والألم الذي يعتصر نفس أبي فراس ، حيث يقول [١]:

زماني كله غضب وعتـــــــــب

وأنت عليّ والأيام إلْـــــــــــب[٢]

وعيش العالمين لديك سهـــــــل

وعيشي وحده بفناك صعـــــــب

وأنت وأنت دافع كل خطـــــــب

مع الخطب الملم عليّ خطـــــــب

إلى كم ذا العقاب وليس جـــــرم

وكم ذا الاعتذار وليس ذنـــــــب؟

فلا بالشام لذا بغىّ شـــــــرب

ولا في الأسر رق علىّ قلـــــــب

فلا تحمل على قلب جريـــــــح

به لحوادث الأيام نـــــــــدب

أمثلى تقبل الأقوال فيـــــــــه

ومثلك يستمر عليه كـــــــذب؟!

---

(١) ديوانه ص ٣١.

(٢) الإلب : القوم يجتمعون على عداوة إنسان ، يريد أبو فراس أن يقول لسيف الدولة : لا تكن أنت والأيام عليّ، فيكفي ما نالنى من الأيام والقدر المحتوم.

غير أنه يعود فيتذكر حاجته إلى سيف الدولة ، وأن أمر فدائه معلق برضاه، فيرق ويستعطف ، على شاكلة قوله[1]:

هـل تعطفـان علـى العليـل ... لا بالأسـير ولا القتيـل

باتـت تقبلـه الأكـ ... ـف سـحابة الليـل الطويـل

يرعـى النجـوم السـائرا ... ت مـن الطلـوع إلى الأفـول

يـا فـارج الكـرب العظيـ ... ـم وكاشـف الخطـب الجليـل

كـن يـا قـوى لـذا الضعيـ ... ـف ويـا عزيـز لـذا الـذليل

قربـه مـن سـيف الهـدى ... في ظـل دولتـه الظليـل

أو مـا كشـفت عـن ابـن دا ... ود ثقـلات الكبـول[2]

الله يعلـم أنـه ... أملـي مـن الـدنيا وسـولي[3]

ولـئن حننـت إلى ذراه ... لقـد حننـت إلى وصـول

لا بالغضـوب ولا الكـذو ... ب ولا القطـوب ولا الملـول

يـا عـدتي في النائبـا ... ت وظلـتي عنـد المقيـل

أيـن المحبـة والـذما ... م ومـا وعـدت مـن الجميـل؟

أما المعتمد بن عباد فلم يكن لديه من يؤمل فيه نجدة أو نصرة ، كما أنه كان على يقين بأن المرابطين لن يطلقوا سراحه مهما اعتذر أو استعطف ، وكان أقصى ما يؤمله هو أن يجد شيئا من المعاملة الكريمة ، لكنهم كانوا يعملون دائما على إضعاف

---

(١) ديوانه ص ٢٣٥.

(٢) ابن داود : هو أحد الذين افتداهم سيف الدولة من الأسر.

(٣) سولي : موضع سؤالي ، وخفف لضرورة الشعر.

روحه ، وكسر شوكته النفسية ، وتحطيم إرادته ، حتى لا يخطر بباله مجرد التفكير في الخلاص من قبضتهم ، فانكفأ الرجل على نفسه ، يشكو حاله ، ويأسى لصروف الدهر وتقلباته ، فنراه يتوجه بالشكوى إلى قيده الحديدي يستعطفه ويسترحمه ، فربما وجد فيه من الرحمة ما لا يجده عند القاسية قلوبهم ، فيقول[١]:

قيدي أما تعلمني مسلمـــــــــــا

أبيت أن تشفق أو ترحمـــــــــــا

دمي شراب لك واللحم قـــــــــد

أكلته لا تهشم الأعظمـــــــــــا

يبصرني فيك أبو هاشـــــــــــم

فينثني والقلب قد هشمـــــــــــا[٢]

ارحم طفيلا طائشا لبـــــــــــه

لم يخش أن يأتيك مسترحمـــــــــا

وارحم أخيات له مثلـــــــــــه

جرعتهن السم والعلقمـــــــــــا

ولعله كان يؤمل من وراء مخاطبة هذا الجماد أن يتحرك أو يرق له قلب ما تزال فيه بقية من الرحمة أو الإنسانية ، ولكن هيهات ، إنها السياسة التي لا تعرف شفقة ولا رحمة.

فلما لم يجد شفقة لا في قيده ولا في بني البشر عمد إلى شكوى الدهر ومعاتبته، على شاكلة قوله [٣]:

---

(١) ديوانه ص ١١٢.

(٢) أبو هاشم بن المعتمد ، وكان صبيا ، وقد دخل على أبيه فرآه في قيوده ، فعزت على المعتمد نفسه فأنشأ هذه الأبيات.

(٣) ديوانه ص ١١٤.

أبي الدهر أن يقنى الحياء ويندمـــــا

وأن يمحو الذنب الذي كان قدمـــــــا

وأن يتلقى وجه عتبى وجهُـــــــه

بعذر يغشى صفحتيه التذممـــــــــا

وقوله[١]:

قبح الدهر فماذا صنعـــــــــــا

كلما أعطى نفيسا نزعـــــــــــا

قد هو ظلما بمن عاداتـــــــــــه

أن ينادي كل من يهوي لعـــــــــا[٢]

من إذا قيل الخنا صـــــــــم وإن

نطق العافون همسا سمعـــــــــــا

قل لمن يطمع في نائلـــــــــــه

قد أزال اليأس ذاك الطمعـــــــــــا

راح لا يملك إلا دعـــــــــــوة

جبر الله العفاة الضيعـــــــــــا

وبعد أن أوصدت الأبواب كلها دونه ، وانقطع به الأمل في رحمة البشر ، لم جد سوى باب واحد لا يغلق أبدا ، هو باب اللطيف الخبير ، الرءوف الرحيم ، فلجأ إليه بشكواه ، فهو وحده القادر على كشف الضر عنه ، يقول[٣]:

قلبي إلى الرحمن يشكو بثـــــــــه

ما خاب من يشكو إلى الرحمـــــــــن

---

(١) ديوانه ص ١٠٨.

(٢) يهوي : يسقط لعا : كلمة تقال للعاثر دعاء له بالإقالة من عثرته ، والمراد أنه كان يغيث الملهوف.

(٣) ديوانه ص١١٥.

جـ - الإخوانيات

الأسر محنة تظهر فيها معادن الأصدقاء والإخوان على حقيقتها دون تجمل أو تزييف ، وقد كان إخوان المعتمد أوفياء له ، حريصين على مودته في محنته ، وذلك لأن المعتمد كان كثير الاحتفاء بإخوانه ، محبا للأدباء والشعراء ، يقربهم ويغدق عليهم ، ويدنى مجلسهم منه ، مما أشعرهم بهول الفاجعة[١].

وقد زاد من شدة إحساسهم بالفاجعة ووفائهم للمعتمد ما آل إليه حالهم أيام يوسف بن تاشفين الذي كان يرى الشعراء مجموعة من المتسولين ، لا يعرفون غير التكسب ، ولا يبحثون إلا عن لقمة الخبز [٢]، فكان في تقويض ملك المعتمد تقويض لكانتهم.

وقد وفى للمعتمد في أسره شعراء كثيرون ، وتحمل بعضهم مشقة السفر إلى أغمات مخاطراً بنفسه لزيارة المعتمد ومواساته في محنته ، ومن هؤلاء الشعراء ابن اللبانة ، وابن حمديس ، وأبو محمد عبد الله بن إبراهيم عم الحجاري صاحب المسهب ، وغيرهم[٣].

وقد زاروه زيارة وفاء لا زيارة استجداء ، فماذا كان يرجى من أسير مكبل في أغلاله ؟ وكان المعتمد يقدر لهم وفاءهم ، ويتمنى أن لو كان في يده ما يكافئهم به ، فعندما زاره ابن اللبانة في أغمات ، وحان وقت رحيله عنه ، وعلم المعتمد أنه عزم على الرحيل صرف حيله ، واستنفد ما كان من المال قبله ، وبعث إليه بعشرين مثقالا مرابطية وثوبين غير مخيطين ، وكتب معهما أبياتا ، منها[٤]:

---

(١) راجع الذخيرة م (١) ق (٢) ص ٤٦ ، ص ٧٧ وما بعدها ، والحلة السيراء لابن الأبار جـ ٢ ص.

(٢) انظر المعتمد بن عباد لعلي أدهم ص ٢٦٦.

(٣) انظر : المعتمد بن عباد لعبد الوهاب عزام ص٧٢ وما بعدها ،والمعتمد بن عباد لعلي أدهم ص ٣٢٦.

(٤) ديوانه ص ١٠٢.

إليك النزر من كف الأسيـــــــــــر

فإن تقبل تكن عين الشكـــــــــــور

تقبل ما يذوب له حيـــــــــــاء

وإن عذرته حالات الفقيـــــــــــر

ولا تعجب لخطب غض منـــــــــه

أليس الخسف ملتزم البـــــــــدور؟

فرد ابن اللبانة الصلة إشفاقا عليه ، وأجابه بقوله[1]:

سقطت من الوفاء على خبيـــــــــر

فذرني والذي لك في ضميـــــــــري

تركت هواك وهْو شقيق دينـــــــي

لئن شقت برودي عن غـــــــــدور

ولا كنت الطليق من الرزايـــــــا

إذا أصبحت أجحف بالأسيـــــــــر

أنا أدرى بفضلك منك إنـــــــــي

لبست الظل منه في الحـــــــــرور

غني النفس أنت وإن ألحـــــــــت

على كفيك حالات الفقيـــــــــــر

تصرف في الندى حيل المعالـــــــي

فتسمح من قليل بالكثيـــــــــــر

(١) الذخيرة م (١) ق ٢ ص ٦٢.

ويبكى ابن اللبانة على أيام المعتمد متحسراً على ما ذهب بذهابها ، فيقول[١]:

انفض يديك من الدنيا وساكنهـــــــا

فالأرض قد أقفرت والناس قد ماتـوا

وقل لعالمها السفلى قد كتمـــــــــت

سريرة العالم العلوي أغمـــــــاتُ

وهكذا كانت علاقة المعتمد بسائر إخوانه علاقة ود ووفاء وإخلاص[٢]:

أما أبو فراس فكـان تياهـا بنفسـه متعاليـا ، ممـا خلـق حولـه مجموعـة مـن الحساد والشانئين ، فما إن تنكرت الأيام له حتى أخـذوا يفنـدون رأيـه ، ويحملونـه وحدة تبعة ما أصابه ، وانبرى هو لهم يذم فيهم الغدر والخيانة والتقلـب مـع الأيـام حيث كانت ، وكان لتباطئ سيف الدولة في فدائه أثر كبير في تعميـق هـذا الشـعور في نفسه ، وفي ذلك يقول[٣]:

بمن يثق الإنسان فيما ينوبـــــــه

ومن أين للحر الكريم صحـــــــاب ؟

وقد صار هذا الناس إلا أقلهـــــــم

ذئابا على أجسادهم ثيـــــــــاب

---

(١) الذخيرة م (١) ق ٢ ص٦٣.

(٢) انظر المعتمد بن عباد لعبد الوهاب عزام ص ٧٢ والمعتمد بن عباد لعلي أدهم ص ٣١٢ وما بعدها.

(٣) ديوانه ص ٢٥.

ويقول[١]:

أما صاحب فرد يـــدوم وفـــــاؤه

فيصفي لمن أصفى ويرعى لمن رعـــــى

أفي كـــل دار لـــي صديـــــق أودّه

إذا ما تفرقنا حفظت وضيعـــــــــا

ويقول[٢]:

أقلّب طرفي لا أرى غير صاحـــــب

يميل مع النعماء حيث تميـــــــــل

وصرنا نرى أن المتارك محســـــن

وأن صديقا لا يضر خليـــــــــــل

أكلّ خليل هكذا غير منصـــــــف

وكلّ زمان بالكرام بخيـــــــــل

وقد علت هذه النبرة في شعر أبي فراس ، وترددت في مواضع كثيرة منـه[٣] ، مما يدل على عمق المأساة في نفسه ، وخيبة أمله في إخوانه وأصدقائه.

على أننا لا يمكن أن نعفي الشاعر من تبعة ذلك ، أو أن نلقـى باللائمـة علـى إخوانه وأصدقائه وحدهم ، فقد كان أبو فراس متعاليا ، شـديد الاعتـداد بنفسـه ، لا يكاد يرى أحداً غيرها حتى في أسره ومحنته ، مما أوغر قلوب كثيرين عليه ، وأكثـر من حساده وشانئيه ، حتى ذهب بعض الكتاب إلى أن سيف الدولة نفسـه ربمـا تباطـأ

---

(١) ديوانه ص ١٨٤.

(٢) ديوانه ص ٢٣٢.

(٣) انظر ديوانه ص ٣٦ ، ٥٧ ، ٨٧ ، ٩٠.

في فدائه لأنه "شام منه طموحا كبيراً ، وأحس منه طمعا في الملك ، وتريب من إدلاله وزهوه وشجاعته ، فرأى أن يمد في أسره ليكسر من شكوته ، ويحط من غلوائه ، ويأمن شره"[1]

د – كان للتجربة أو المحنة أثرها وانعكاسها على بناء القصيدة عند الشاعرين ، فقد خرجت أكثر أشعارهما في الأسر على النمط التقليدي لبناء القصيدة القديمة ، واتسمت بالوحدة الموضوعية ، وبوضوح الفكرة ، وسلامة العبارة وصفائها ، والبعد عن التكلف والتعقيد ، مع انسياب عاطفة قوية متدفقة ، ثائرة ملتهبة عند أبي فراس ، وهادئة رزينة عند المعتمد ، إضافة إلى معجم شعري مفعم بألفاظ الأسى والحسرة ، تنبثق مفرداته من روح التجربة بذلها وقهرها ، وقيودها وأغلالها ، وتعبر عن حالة الشاعرين النفسية بأحزانها وأشجانها.

---

(١) تاريخ الأدب العربي لحنا الفاخوري ص ٦٤٨.

خاتمة

من خلال دراستى لشعر الأسر بين أبى فراس والمعتمد أسجل النقاط التالية :

أ- أن كلمة " الأسر " كانت تتناوب دلاليا مع كلمتى " الحبس والسجن " ، وظل الترادف اللغوى بين الألفاظ الثلاثة ملحوظاً وجارياً فى الاستعمال حتى نهاية العصر الأموى ، فلما جاء العصر العباسى أخذت كلمة أسير تختص بالذين يأخذون قسرا فى حرب أو نحوها ، والسجين والحبيس بمن تعتقله السلطة .

ب-أن شعر الأسر يعد من أهم الأغراض الشعرية التى تسبر أغوار النفس الإنسانية ، وتعكس تجربة الشاعر فى محنته بعيداً عن التصنع أو التجمل والتزييف .

جـ- أن كلا من أبى فراس والمعتمد لم يؤسر عن ضعف أو استسلام ، فقد ألقى كل منهما على الموت بنفسه ، وقاتل قتال الأبطال مؤثرا المنية على الدنية ، لكن القدر المحتوم كان لهما بالمرصاد ، حيث لا ينجي إقدام ولا حذر من القدر.

د — كان لكل من الشاعرين في أسره معاناته الخاصة ، فالمعتمد كان يعاني من تنكر الأيام له ، وتقبلها به ، مع يأسه وانقطاع أمله في النجاة ، وما آل إليه حاله وحال بناته من الذل والفقر ، والحاجة والعوز ،وثقل القيود والأغلال عليه ، وتساقط أبنائه الواحد تلو الآخر على أيدى المرابطين.

أما أبو فراس فكانت معاناته مع ابن عمه سيف الدولة أكثر منها مع الروم ، فكان يرى في تباطئ سيف الدولة في فدائه لونا من التنكر وعدم الوفاء

له ، ويبدو أن الروم كان يستغلون ذلك للنيل من إباء أبي فراس وشممه ، ويعملون على كسر شوكته وتحطيم نفسيته ، فلو كان له من المكانة ما يدعى لبادر ابن عمه إلى فدائه.

هـ- أن أسر الشاعرين كان له أثره الواضح في تشكيل أغراضهما الشعرية ، فقد نبعت أشعارهما في هذه المرحلة من وحي التجربة وأعماق المحنة ، ودارت حولها أو لبست لونها ، فكان العتاب والشكوى ، وبعض الإخوانيات سواء أكانت على سبيل الوفاء كما في شعر المعتمد أم على سبيل ذكر مواقفهم السلبية من التنكر وعدم الوفاء ، والتقلب مع الأيام ، أو الحقد والحسد والشماتة ، أو اللوم والتعنيف ، وهو ما كان من أبي فراس.

كما نجد في شعرهما في الأسر الرثاء الحار الذي يبكي فيه الشاعر حاله قبل أن يبكي فقيده ، بكاء يصدر عن نفس جريحة مكلومة ، ويعبر عن واقع مر وصدمة قاسية يعاني فيها الشاعر ألم الأسر وألم الفقد معا.

و – أن هذه المحنة كان لها أثرها الواضح في إذكاء جذوة الشعر وتوقدها عند الشاعرين ، وقد أسهمت بوضوح في بروز شاعريتهما ، وحفر اسميهما في سجل الشعر العربي وشعرائه البارزين.

أهم المصادر والمراجع

١- الأسر والسجن في شعر العرب : تاريخ ودراسة د / أحمد مختار البزرة ، ط مؤسسة علوم القرآن دمشق – بيروت ، سنة ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م.

٢- تاريخ الأدب العربي لحنا الفاخوري ط المطبعة البوليسية – بيروت ، بدون تاريخ.

٣- تاريخ الأدب العربي لكارل بروكلمان ترجمة د / عبد الحليم النجار ، ط دار المعارف ١٩٧٧م.

٤- الحلة السيراء لابن الأبار تحقيق د / حسين مؤنس ، ط دار المعارف سنة ١٩٨٥م.

٥- ديوان أبي فراس ، ط دار صادر بيروت ، بدون تاريخ.

٦- ديوان المعتمد بن عباد ملك إشبيلية / جمع وتحقيق أحمد بدوي وحامد عبد المجيد، مراجعة د / طه حسين ، ط المطبعة الأميرية بالقاهرة سنة ١٩٥١م.

٧- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام ، تحقيق إحسان عباس ، ط دار الثقافة بيروت سنة ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م.

٨- عصر الدول والإمارات "الأندلس" د/ شوقي صيف ، ط دار المعارف سنة ١٩٩٩م الطبعة الثالثة.

٩- عصر الدول والإمارات (مصر – الشام) د /شوقي ضيف ، ط دار المعارف سنة ١٩٨٤م.

١٠- قلائد العقيان للفتح بن خاقان ، تصحيح محمد الصباغ ، ط المطبعة الخديوية ببولاق سنة ١٢٨٣هـ.

١١- المعتمد بن عباد لعلي أدهم ، ط وزارة الثقافة بالقاهرة (سلسلة أعلام العرب : العدد الثاني).

١٢- المعتمد بن عباد الملك الجواد المرزأ لعبد الوهاب عزام ، ط دار المعارف سنة ١٩٧٦م.

١٣- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقري ، ط دار المطبعة الأميرية سنة ١٢٧٩م.

١٤- وفيات الأعيان لابن خلكان / تحقيق إحسان عباس ، ط دار صادر بيروت سنة ١٩٧٠م.

١٥- يتيمة الدهر للثعالبي ، تحقيق د / مفيد قميحة ، ط دار الكتب العلمية بيروت سنة ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.

فهرس المجلد الثانى

اسم البحث	صفحة
١- الاستنساخ الجنيني البشري د/ ليلى بنت سراج صدقة	٥٣٥
٢- محكمة المظالم فى صيانة الحكم الإسلامي مستشار / محمود الخالدى	٦١٣
٣- من بلاغة التعبير بغير القول د/ بغدادي لإبراهيم الصحابي	٦٨٩
٤- منهج عبد القادر الجرجاني فى تعامله مع البديع د/ عبد العزيز بن صالح بن عبد العزيز العمار	٧٥١
٥- موقع الجبال فى تصوير القرآن الكريم دراسة بلاغية تطبيقية د/ عبد الله عبد الخالق محمد	٧٩٧
٦- شعر أبى طالب بن عبد المطلب فى مناصرة ﷺ د/ محمد محمد خميس	٨٣٩
٧- البلاغة القرآنية فى آيات الدين د/ رمضان محمد بن محمود	٨٩٧
٨- شعر الأسر بين ابر فراس ومعتد بن عباد د/ محمد مختار جمعة مبروك	٩٧٥